الافتتاحية

الرقابة

خصّصتْ مجلة Index on Censorship عددَها الأخير (نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٦) لقصصٍ منعتها أجهزة الرقابة في عدد من بلدان العالم، وفي فترات مختلفة من القرن العشرين. وقد لفتتْ نظري قصّةُ ايتالو كالفينو «جنرال في مكتبة» التي تصدّرت قصصَ المجلّة المذكورة. والجدير ذكره أنّ كالفينو روائيٌّ وقصّاصٌ وصحافيٌّ كوبيٌّ الأصل، لكنّه ترعرع في إيطاليا وكان عضواً في حركة الأنصار أثناء الاحتلال الألماني لشمالي إيطاليا في الحرب العالمية الثانية.

وقد رأيتُ أن أشرك القارئ في قراءة هذه القصّة، لا لذكائها، ورهافة حسّها، ومَرَحِها اللاذع حتى تُخوم اللّوْعة، ونافذيّةِ بصيرتها إلى قوّة الكلمة - في وقت كَثُر فيه الحديثُ المتعسِّفُ وغيرُ الدقيق عن «موت المثقّف»، و«أوهام النخبة»، و«نهاية التاريخ» - فحسب... بل (وهنا بيت القصيد) لأنّ هذه القصّة تُشرع الأفقَ على أسئلة الكتابة العربيّة ذاتها: عن حال الرقابة العربيّة العشوائيّة إلى حدود العبث وجنون الارتياب (البارانويا)، وعن حال المثقفين العرب الموالين والمعارضين والسائرين على الجسور والحبال، وعن حال العسكر الذين يتحوّلون (بين ليلةٍ وضُحاها) كما يقول زياد الرحباني) إلى مثقفين ومنظّرين، وعن إمكانية العمل الثقافي المعارض (أو الاعتراضي، على الأقلّ) من داخل جهاز الدولة القامع.

وإذا أنقل هذه القصّة إلى اللّغة العربيّة، وأطرح عليها (في خاتمتها) أسئلتنا «العربيّة»، فإنّني أعي أنّني قد ارتكبتُ نوعاً من الخطيئة النقديّة: بإلصاقها في بيئة غير البيئة التي نبتتْ فيها، ومنها استوحتْ نُسْغَها واخضرارَها ورموزَها، على اعتبار أنّ المؤلّفين «كائنون إلى حدّ بعيد في تاريخ مجتمعاتهم، يشكّلونه ويتشكّلون به» كما قال ادوارد سعيد (**الثقافة والامبريالية**، ص ٥٠). ومع ذلك فإنّ النصّ الأدبي وغير الأدبي ما إن يُنشر حتى يصبح مُلْكاً لجميع القرّاء، يقرأونه بعيونهم لا بعين المؤلّف، ويُسقطون عليه ما شاء لهم إسقاطه: آمالاً وخيباتٍ وسُخْريات. ويحضرني في هذا المجال ما قاله ساعي البريد لشاعر التشيلي العظيم پابلو نيرودا في فيلم Il Postino: «إنّ القصيدة ليست مُلْكاً للشاعر، بل هي مُلْكٌ لكلّ من يحتاج إليها!».

وأخيراً، فإنّي أحرص على أن يقرأ هذه القصّةَ العاملون في أجهزة الرقابة العربيّة، وهم - بالمناسبة - من أشدّ قرّاء **الآداب** إخلاصاً ونَبْشاً وتفكيكاً وتمزيقاً ومصادرةً وتشاطراً، إلى يومها هذا الذي تودّع فيه عامَها الرابع والأربعين وتدخل عامها الخامس والأربعين بمزيجٍ متعاظم من اليأس والخشية والألم والأمل والتحدّي والفرح. ومردّ حرصي هذا لا يعود إلى الرغبة في استثارتهم ودَغْدَغَتِهم (أتراهم يتخلّون - ولو لحظةً - عن وقارهم الأخلاقوي البوليسي الممجوج؟)، ولا إلى دعوتهم إلى الرأفة بالمواطن العربي الذي يتحمّلون مسؤوليةً كبيرةً في تأخّره وإفقاده الحسَّ بكرامته وحريّته وإنسانيّته، ولا إلى مناشدتهم الرِّفق بالكاتب العربيّ (الذي بَلَغ تذويتُهُ واستبطانُه للقمع والرّقابة أن راح ينفي إخضاعَهُ ما يكتُبُه للمراقبة الذاتية!)، ولا أملاً في أن يتحوّلوا بعد هذه العقود الطويلة من القصّ والتشطيب والتنتيف من «بَصّاصين» (بلغة جمال الغيطاني) إلى قرّاء (محض قُرّاء، يا ناس!)... وإنّما...

وإنّما ماذا؟

سماح ادريس

جنرال في مكتبة

إيتالو كالفينو

ذات يوم، في دولة «پاندوريا» الشهيرة، تسلّلَ إلى عقول الموظّفين الرّسميين الأعلين شكٌّ: في أنّ الكتب [عامّة] تحتوي آراءً معاديةً للهيبة العسكريّة. والواقع أنّ المحاكمات والتحقيقات قد كشفتْ أنّ الميْلَ، المنتشر اليوم، إلى اعتبار الجنرالات أُناساً قادرين بالفعل على ارتكاب الأخطاء والتسبُّبِ في حصول الكوارث، وإلى اعتبار الحروب أفعالاً لا تؤدّي دوماً إلى هجوم فرسان رائع باتّجاه قَدَر مجيد، إنّما هو ميل يتبنّاه عدد كبيرٌ من الكتب القديمة والحديثة، الأجنبيّة والپاندوريّة على حدّ سواء.

اجتمع أركان حرب پاندوريا لتقييم الوضع. لكنّهم لم يعرفوا من أين يبدأون، لأنّ أحداً منهم لم يكن ضليعاً في الأمور البيبليوغرافيّة(*). فتشكّلتْ لجنةٌ تحقيق برئاسة الجنرال «فِدينَا»، وهو موظّف صارم وشديدُ التدقيق، مهمّتُها فحصُ كلّ الكتب في أضخم مكتبة في پاندوريا.

كانت المكتبة تقع في بناء قديم مليء بالأعمدة والأدراج، حيطانُهُ تتقشّر بل تتصدّع هنا وهنالك. وكانت غرفُها الباردة مكتظّة بالكتب حتى حدود الانفجار، وبعضُ أنحائها عصيّةٌ على البلوغ، لا تستطيع أن ترود بعضَ زواياها سوى الفئران. ولمّا كانت ميزانيّةُ دولة پاندوريا مثقلةً بالمصاريف العسكريّة، فقد تعذّر على هذه الدولة أن تقدِّم أيّة معونة.

احتلّ العسكريّون المكتبةَ ذات صباح ممطر من تشرين الثاني (نوفمبر). نزل الجنرالُ عن صهوة جواده، قصيراً ثخيناً مُتَيَبِّساً، عنقُه الثخينة حليقة، وحاجباهُ مُقَطّبانِ فوق نظارةٍ أنفيّة. أربعةُ ملازمين أوائل طِوالٌ هزيلون، ذقونهم مرفوعة إلى الأعلى

(*) البيبليوغرافيا: تاريخ المكتوب والمنشور، ووصفُهما، والتعريفُ بهما.